﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [النور:47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِـــن أعـجـبِ العجبِ البقاءُ عـلى الـضَّـلال والـنـفـاق مع البيان الشّافي

لمّا أخبر ﷻ أنَّه أنزل الآيات، ثم قيَّد الهداية إليها؛ لأنَّها من قِبَلِهِ، لبعض دون بعض، وقد ذكر دلائل التوحيد؛ أتبع ذلك بذَمِّ قومٍ اعترفوا بالذَّنب بألسنتهم مع عدم قَبولهم له بقلوبهم، فهم نموذجٌ لمن لم يهتدِ، بل ضلَّ عن الصِّراط المستقيم؛ فحالُهم عجيبٌ غريب؛ عموا عن دلائل التَّوحيد التي أقامها تعالى، وعدّدها، وأوضحها بحيث صارت كما ذكر تعالى أعظمَ من نور الشمسِ، ثم يقولون ما يتعاند مع ذلكَ[1]، فهذه الآية امتدادٌ لقوله: ﴿وَٱللَّـهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَطَعۡنَا﴾: (طوع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الإِصْحابِ والانْقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ؛ إذا انْقادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأَمرِهِ، وأَطاعَهُ بِمَعْنَى: طاعَ لَهُ، ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[2]، ويضادُّ الطوعَ الكرهُ، قال ﷻ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت:11]، والطّاعَةُ مثل الطوعِ لكن أكثر ما تقالُ في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم[3].

ومعنى: ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ في الآية: أوجدْنا الانقياد لأوامر الله ورسوله، ونواهيهما؛ لأنَّه جاء بعد قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾.

2) ﴿فَرِيقٞ﴾: (فرق) أُصَيْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَمييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) الراغب، المفردات: (طوع).

شَيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ الفَرْقُ: فرْقُ الشَّعْرِ، يُقالُ: فرَقْتُهُ فرْقًا، والفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرِّدة من النّاس، ومنه الفِرْقُ: القَطيعُ من الغنم، ومِنَ البابِ: الفَريقَةُ، وهوَ القَطيعُ مِنَ الغَنَمِ، كَأَنَّها قِطْعَةٌ فارَقَتْ مُعْظَمَ الغَنَمِ، والفَرْقُ يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة:50]، والفَريقُ: الجماعة المتفرِّقة عن آخرين[1].

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾، أي: جماعة متميِّزةٌ عن غيرهم مِن المنافقين ومِن المؤمنين، مِن شأنها بثُّ الفرقة في صفوف المجتمع المسلم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافق مخادعٌ، يروغ من الحقِّ روغانَ الثَّعالب، يقول المنافقون: لقد صدَّقنا بتوحيدِ اللّه وبالرسول محمَّد، وأطعناهما فيما أمرا به، ونهيا عنه، فيما كان، وفيما يكون، وفيما سيكون، ورضينا فيما حكما به خصوصًا، ولكنَّ فريقًا منهم يعرض، ويمتنع عن قَبول حكمِه، فهؤلاء المعرضون ليسوا بالصادقين في الإيمانِ الذين توافق قلوبُهم ألسنتَهُم.

لا يعلم جميعَ أحـــوال كـلِّ المنافقين إلّا اللهُ تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

عَطَفَ القرآنُ جُملَةَ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على جُملَةِ: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لِما تَتَضَمَّنُهُ جُملَةُ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ هِدايَةِ بَعْضِ النّاسِ وحِرْمانِ بَعْضِهم مِنَ الهِدايَةِ، كَما هوَ مُقْتَضَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهَذا تَخَلُّصٌ إلَى ذِكْرِ بَعْضٍ مِمَّنْ لَم يَشَأِ اللّه هِدايَتَهُم، وهُمُ الَّذينَ أَبْطَنوا الكُفْرَ، وأَظْهَروا الإسْلامَ، وهُم أَهْلُ النِّفاقِ، فبَعْدَ أَنْ ذُكِرَتْ دَلائِلُ انْفِرادِ اللّه تعالى بالإلَهيَّةِ، وذُكِرَ الكُفّارُ الصُّرَحاءُ

مَن ماتَ منافقًا لـم تـشـمـلْـهُ هداية التوفيق

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والراغب، المفردات: (فرق).

الَّذينَ لَم يَهْتَدوا بها في قَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النّور:39]؛ تَهَيَّأَ المَقامُ لِذِكْرِ صِنْفٍ آخَرَ مِنَ الكافِرينَ الَّذينَ لَم يَهْتَدوا بِآياتِ اللّه، وأَظْهَروا أَنَّهُمُ اهْتَدَوا بِها[1].

وفَهِمَ بعض المفسِّرين أنَّ جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قد عُطِفت عليها جملةٌ محذوفة؛ لتتأسَّس عليها الآيةُ اللاحقة، والتقدير: (واللّه يضلُّ من يشاء، فيكفرون بالآيات والذكر الحكيم)، وآية: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: معطوفةٌ على هذه المقدرة[2].

سرُّ التعبيرِ بفعل القول مضارعًا:

هـؤلاءِ المنافقون لا يـمـلّـون من الكذب والنفاق

عَبَّرَ بالمُضارِعِ في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لإفادَةِ تَجَدُّدِ ذَلِكَ مِن المنافقين واسْتِمرارِهم عليه؛ لِما فيهِ مِنْ تَكَرُّرِ الكَذِبِ ونَحْوِهِ مِنْ خِصالِ النِّفاقِ[3]، فهُم لا يملّون من استمراء الكذبِ وخداع المؤمنين.

بلاغةُ إسناد القول إلى جماعة:

مِن سماتِ أهل النِّفاق كمالُهم في الظاهر

أُريد بواو الجمع - في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ - المنافقون جميعهم، وإن كانت قد نزلت في بعضهم - كما ذكر كثير من المفسرين - إلّا أنَّ التَّعبير قد ورد بلفظ الجمع؛ لعموم القول وغلبتهِ؛ ليشمل جميع مَن يقول ذلك ممَّن لم يهدِهم اللّه تعالى إلى الصراط المستقيم، وفي هذا الإسناد ما في إسناد العقر إلى الجميع في قوله: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، ففيه مجازٌ عقلي، وهذا الضمير رجَع إلى المنافقين المعروفين عند المتلقّين للسورة الكريمة؛ لأنَّ ما ذكر بعده هو مِن أحوالهم، وعود الضَّمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن الكريم، على أنَّهم قد تقدَّم ما يشير إليهم بطريق التَّعريض في قوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور:37].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.

دلالةُ صيغةِ فعل الإيمان:

تـحـقُّـقُ خـلـوِّ قـلـوبِـهـم مِـن الإيـمـان، وقـد ادَّعوه باللِّسان

ورد الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ على لسان هؤلاء المنافقين ماضيًا؛ للإيهام بتحقُّق وقوع الإيمان منهم، وإن كان قولًا كاذبًا، أي: لبيان أنَّه كالواقع المُتحقَّق حصولُهُ، فهم يوهِمون أهلَ الإيمان بأنَّهم مثلهم، قد تحقَّق إيمانهم.

دلالةُ تَكرار الباءِ على خلاف الظاهر:

التَّـكـرارُ مطيَّةُ المبالغة

قوله: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ إذ الإيمان بالرَّسول من متمِّمات الإيمان بالله تعالى كما أنَّ طاعته - ﷺ - من طاعة الله تعالى والمعطوف على المجرور مجرورٌ، فكان الظاهر ألّا تتكرَّر الباء، فلمّا تكرَّرت؛ كان كأنَّه قيل: وآمنا بالرسول؛ لأنَّ تكرار الحرف تكرار للعامل، وفي هذا التَّكرار مبالغةٌ منهم في ادِّعاء كمال اعتدادهم بالرَّسول وزعمهم طاعته واتِّباعه والاقتداء به.

نكتةُ إطلاقِ الرَّسول مِن الإضافةِ:

ربَّ حقٍّ أُريدَ به باطلٌ

لَمَّا كان مِن سِمت دعوى المنافقين للإيمان المبالغةُ في كلِّ جهة ومن كل وجهٍ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ أطلقوا لفظَ الرَّسول، ولم يقيّدوه، فلم يقولوا: (وبرسوله)، وإنَّما قالوا: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما جاء به - وكذلك لسان حاله ولسان مقاله - يدلُّ على أنَّه مرسَلٌ مِن قِبَل الله، على جهة الظُّهور والكمال، فهم يوهمون المؤمنين بأنَّهم قد آمنوا بهذا الرَّسول الذي قد ظهر صدقُهُ، وثبتت رسالتُهُ.

دلالةُ عطفِ فعل الطاعةِ على فعل الإيمان:

لا إيـمـانَ بـدونِ امتثالٍ وطاعةٍ

لَمّا كان "الإيمان يُستعمل تارةً اسمًا للشريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة:69]، ويوصف به كلُّ من دخل في شريعته مقرًّا بالله وبنبوَّته، وتارةً يُستعمل على سبيل المدح، ويُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيقٍ بالقلب، وإقرارٍ باللسان، وعملٍ

بحسب ذلك بالجوارح"[1]، ولمّا كانت الطاعة تعني الانقيادَ والإذعان لكلِّ ما يُؤمر به؛ صار عطفُ الطاعة على الإيمان إذًا من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ؛ تشريفًا لكلا الأمرين: الإيمان والطاعة، فلا يكمل هذا الأوَّل إلّا بالإتيان بالثاني وهكذا، فصار أمرُ الطاعة من متمِّمات الإيمان، وبه يُعرَفُ صدقُ العبد من عدمهِ، ولهذا المعنى ادَّعى المنافقون إيمانهم بالله وبرسوله، ثمَّ انقيادهم لما قضى به الرَّسول ﷺ بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، زاعمين كمالَ إيمانهم بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

دلالةُ حذفِ المفعولِ به:

الـطـاعـةُ هي مقياسُ الإيمان الحقيقي

حُذِفَ مفعولُ الفعل الوارد على ألسنتهم كذبًا وزورًا في قوله: ﴿وَأَطَعْنَا﴾، والتقدير: وأطعنا الله تعالى الذي جعل رسوله ﷺ حكمًا قاضيًا، وأطعنا الرسول ﷺ فيما قضى به، وحكم به، فحذف المفعولَ إيجازًا؛ لدلالة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ عليه، وللإشعار بكمالِ طاعتهم له ﷺ بما في الحذف مِن معنَى أنَّ الأصلَ طاعةُ الله وطاعة الرسول ﷺ.

معنى ﴿ثُمَّ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

لا بُـدَّ لمُـدَّعـي الإيـمـان من اختبار يكشف سرَّه وخبثه

﴿ثُمَّ﴾ حرفُ عطف يفيد الترتيب مع التراخي، وقد تجيءُ (ثمّ) كثيرًا لتفاوتٍ ما بينَ رتبتين في قصد المتكلِّم[2]، فعطفت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ تولّيَهم عن قَبول الحقِّ - بعد إعلانهم الكاذبِ إيمانَهم بالله وبرسوله وانقيادهم لحُكمهِ وقضائهِ - على جملة القول ومقوله، فأبانت ضلالهم وكفرهم، و﴿ثُمَّ﴾ هنا تفيد غايةَ قُبح هذا التولّي بعد ذلك المذكور، مع التعجُّب منه غاية التعجُّب، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ

(1) الراغب، المفردات: (أمن).
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 266، وما بعدها.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام:1].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ التَّولي:

التـَّـولّي يكشفُ حقيقةَ دعوى إقبالِهم على الله ورسوله

التولّي في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ هو الإعراضُ والنُّفور وإدارة الظَّهر للناصح، عن طريق عدم الالتفات لما يُمليه هذا الناصح، أو هو تركُ الإصغاء كليَّةً لما يقال، أو عدمُ الائتمار بأمره والإذعان لقوله، ففيه من السَّخافةِ وعدم الحِلم ونزع الأدب ما فيه، وهو كنايةٌ دقيقة مصوِّرة لهذه الحالة التي يكون عليها هؤلاء المعرضون؛ إمّا لغرورهم وصلفهم وعنادهم، وإمّا لجهلهم وعدم الفهم والسَّمع.

وعُبِّرَ به أيضًا؛ لأنَّه مقابل لما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾؛ معنًى وصورةَ معنًى، مِن إقبالهم بكُلِّيَّاتهم على الله ورسوله، على ما يُفهِمه ذِكرُ الله ورسوله معًا، والتَّعبيرُ باسم الجلالةِ، وبالرسول دون النَّبي، ومِن تكرار حرف الباء، إلى آخر صورِ المعاني، وهذا التَّقابلُ لطيفٌ، والطرفُ الثاني - وهو التولّي - يُكذِّبُ الطرف الأوَّل، ويبيِّن حقيقتَهُ.

دلالةُ صيغةِ التولي:

ما قدرَ المنافقون اللهَ حقَّ قدرِهِ

صيغةُ المضارع: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: ناظرةٌ إلى تجدُّد التولّي عند تجدُّد ما يُخرِجُهُ منهم، ويكشفُه فيهم، فعلامةُ المنافقين تكرُّر تولّيهم وإعراضِهم عن كلِّ ما يدعوهم إليه رسولُ الله ﷺ، ويدعوهم إليه، وتأتي صيغةُ المضارع كذلك لاستحضار صورةِ التولّي؛ لبيان التعجُّب منه؛ لأنَّه كان عقِبَ ادِّعاء الكمال في الإيمان بالله ورسوله، وطاعتهما.

سرُّ التعبيرِ بلفظ: ﴿فَرِيقٌ﴾ دون (جماعة):

كلُّ داعٍ للفُرقةِ ضعيفٌ خسيسٌ حقيرٌ

الموصوفُ بالتولي والإعراض - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - جماعةٌ مِن المنافقين،

تميَّزوا عن غيرهم مِن المنافقين بإعلانهم الكفرَ، بعدم الرِّضا بحُكْم اللّه ورسوله، أي: إنَّهم أعلنوا نفاقَهم باعتبار ما كان، والكفرَ باعتبار ما هو كائنٌ وما سيكون، وأمّا باقي المنافقين؛ فاستمرّوا على المواربة والنِّفاق[1]، فقُصِد بيانُ مغايرة تلك الجماعة لباقي المنافقين، فعُبِّر بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنَّ مادَّته تدور على تَمييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، فتميّزوا، وانفصلوا بذلك عن باقي أهل النِّفاق، وعن أهل الإيمان أيضًا، ثمَّ هم يقصدون بثَّ روح الفُرقة في المجتمع المسلم؛ فلهذا عبَّر القرآن عنهم بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾.

وأمّا كلمةُ: (جماعة)؛ فهي تصدق عليهم، وتصدق على باقي المنافقين، وتصدق على كلِّ جماعةٍ غير المنافقين، تضامَّت في شيء أو أكثر، أو مِن أجل شيء أو أكثر، ثمَّ إنَّ هذه الجماعةَ التي أعلنت عن نفاقها تميَّزت أيضًا عن الذين آمنوا باللّه وبالرَّسول، وأطاعوهما ظاهرًا وباطنًا، وهم الصادقون في إيمانهم، والحاصل أنَّ هذه الجماعة كانت منفصلةً عن هؤلاء المؤمنين، وعن باقي المنافقين، فوُصِفوا بأنَّهم: ﴿فَرِيقٌ﴾.

دلالةُ تنكير: ﴿فَرِيقٌ﴾:

كـلُّ مُـفـرِّقٍ بالباطلِ ليس ذا بالِ

تأسَّس على التَّعبير بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾ كونُ تنكيره للتقليل والتحقير؛ لانحطاط شأن هؤلاء إلى حدٍّ، لا يمكن معه أن يتمَّ تعريفهم، وهو تنكيرٌ للأفراد المذكورين الموصوفين بهذا الإعراضِ حتّى صاروا لا يؤبَهُ لهم، ولا يُقام لهم وزنٌ، فلا يستحقّون التعريفَ والتَّعظيم، فهم نوعٌ مرذول؛ لا يعرف الحقَّ، ولا يسلك بابه أبدًا.

معنى (مِنْ)، ومعنى مدخولها:

المنافقون كلُّهم شـوكٌ، ولـن تـجـنـيَ مـن الشَّوك العنب

(مِن) في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ للتَّبعيض، أي: هذا الفريقُ المتولِّي بعضُ مَن يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.

وعليه فالضَّمير في قوله: ﴿مِّنْهُم﴾ يرجع إلى واو الفاعلين في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، و(نا) الفاعلين في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾، و: ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ فقد أشارت الآيةُ إلى المنافقين عامَّة، ثمَّ إلى فريق منهم أظهروا عدم الرِّضا بحكم الرَّسول ﷺ فكلا الفريقين موسومٌ بالنِّفاق، ولكنَّ أحدهما استمرَّ على النِّفاق والمواربة، وفريق آخرُ لم يلبث أنْ أظهر الرُّجوع إلى الكفر، بمعصية الرسول علنًا[1].

معنى: ﴿مِّنْ﴾، ودلالة ذكرها:

﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ابتدائيَّة، وقد دلَّت: ﴿مِّنْ﴾ بذكرها قبل كلمة: ﴿بَعْدِ﴾ على قُرب المسافة الزمانيَّة التي كانت بين ادِّعائهم الإيمان، وبين تولِّيهم، كأنَّهم لم يستطيعوا، ولم يتحمَّلوا كِتمان الكفر مدَّةً طويلةً؛ لأنَّ قلوبَهم تبغض الله ورسوله ودينهما بغضًا عظيمًا.

المنافقون مفضوحون لا محالة

دلالةُ التقييد بقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾:

قولُه: ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾ متعلِّقٌ بحال محذوفٍ مبيِّنٌ لصاحبه، في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ لبيان كذبِهم مباشرةً بعد إعلان الإيمان بالله ورسوله وطاعتهم لحكم الله وحكم رسوله، الَّذي ادَّعوه كذبًا وزورًا، والمراد: من بعد ما صدر عنهم من ادِّعاء الإيمانِ بالله تعالى وبرسوله ﷺ والطاعة لهما؛ افتُضِح أمرهم، وبان كذبهم وضلالهم بهذا القيد: ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾.

قلوبُ المنافقين أرضٌ خصبة بالكفر، عامرة ببغض الإيمان

دلالةُ الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمُ إشارة للبعيد، والتعبير به في قوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ لبيان حقيقة حالتهم، وأنَّهم بلغوا في إعراضهم عن الحقِّ مبلغًا كبيرًا وبُعدًا عظيمًا؛ كذبًا وافتراءً، فبين قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

بُغضُ المنافقين للإيمان في الحقيقة بقدر تعظيمهم له في الظاهر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 194.

﴿وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ وحقيقة باطنهم بونٌ واسعٌ وبُعدٌ شاسع، والتَّعبيرُ باسم إشارة للبعيد وسيلةٌ إلى تصوير ما هم فيه من حقارة النَّفس، ودناءة الطَّبع، وخسَّة العقل والفهم.

بلاغةُ العطف:

عُطِفت جملة: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لاتِّفاقهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، وهي واردةٌ على سبيل التَّذييل لنفي الإيمان عمَّن ادَّعاه كذبًا وزورًا، وهذا التَّذييل جاء ردًّا قاطعًا عليهم كلَّ سبيل من الكذب والزور، نافيًا دعواهم تلك صراحةً؛ لأنَّ مَن أيقن الإيمان الحقيقي، وأعلن الطاعة الصادقة، لا يمكن أن يوسمَ بوسم النُّفور والاستكبار، والجملة هنا حاليَّةٌ مؤكِّدة لمضمون الكلام بوصف الحالة التي عليها هؤلاء.

نـفـيُ الإيـمـانِ عنهم في مقطع الآيــة يُـمسِك بادِّعائه لهم في أوَّلها

سرُّ ترتيبِ المعاني في الآية:

المعاني في الآية جاءت على هذا الترتيب:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾: وهذا بيانٌ لحقيقة هؤلاء المنافقين المستمرَّة المتجدِّدة، ومدارها على القول باللسان.

اللـهُ لا يـرضى الـنِّـفـاق لـلـمـنـافـقين، ويـحـبُّ لـهـم الإيمان

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾: وهذا تعليقٌ على هذه الحقيقة القولية بحالهم الفعليِّ والعمليِّ والتطبيقيِّ، فلسانُ حالهم يكذِّب لسان مقالهم، والتكذيب هنا بقصِّ شيء من حالهم، وهو التولّي والإعراض، وليس بإثبات الكذب أو الكفر لهم، أو نفي الإيمان عنهم.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: وهذا تصريحٌ بنفي الإيمان عنهم؛ ليلزمَ عنه إثباتُ الكفر لهم على الصِّفة التي أُثبِت لهم الإيمانُ عليها، وهنا ترَقٍّ في الترتيب، كما ترى.

معنى (ما)، وبلاغة التعبير بها:

(ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: نافيةٌ حجازيَّة لها صدرُ الكلام،

وقد وردت هنا؛ لنفي الإيمان عن هؤلاء المدَّعين له، ونفي طاعتهم أيضًا، فهم موسومون بعدم الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى ولا لأمر رسوله ﷺ وهي في الآية لنفي الحال؛ لأنَّ جملتها قيدٌ في المعنى لقول المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، فجملتها تردُّ على ادِّعائهم الإيمان صراحةً، والألصق بهذا كونُها للحال، وإن أفهم مجموعُ الآية أنَّهم ليسوا بمؤمنين؛ ما داموا يبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام.

لا إيمانَ لِمن أعرض عن الله ورسوله

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ في محل رفع اسم (ما) الحجازية، والإشارةُ هنا إلى القائلينَ لا إلى الفريقِ المتولّي منهم فقط؛ لعدم اقتضاءِ نفيِ الإيمانِ عنهم نفيهُ عن الأوَّلينَ بخلافِ العكسِ، فإنَّ نفيَهُ عنِ القائلينَ مقتضٍ لنفيِه عنهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه.

كم مِن أحدٍ يدَّعي القربَ، وهو بعيدٌ

وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار ببُعد منزلتِهم في الكفر والفسادِ، أي: وما أولئك الذين يدَّعون الإيمانَ والطّاعةَ، ثم يتولَّى بعضُهم: الذين يشاركونهم في العقدِ والعملِ بالمؤمنين[1]، وفي التَّعبير به تنبيهٌ على أنَّ هذا الفريق خصوصًا جديرٌ بما بعد اسم الإشارةِ؛ بسبب ما قبلَهُ، مِن تولّيه وإعراضه.

معنى الباء، وسرُّ التعبير بها:

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حرفُ جرٍّ زائد في الصناعة النحويَّة، غيرُ زائد بيانًا وبلاغةً، فقد أكَّدت نفي الإيمان عن هؤلاء المنافقين، والمرادُ به الإيمانُ الكامل المبنيُّ على الطّاعة الكاملة والانقياد التامِّ لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ فهذه الباء المؤكِّدة تواجِهُ ما ادَّعاه هؤلاء المنافقون مِن الإيمان المؤكَّد الحقيقي، مِن تعبيرِهم بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنَّا﴾، ومِن إعادة الباء مع الرَّسول:

كيف يدَّعي الخالي مِن الإيمان الكمالَ فيه

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186، والآلوسي، روح المعاني: 18/ 194، 195.

﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾، فلا بدَّ أن يكون المنفيُّ على قدر المثبت، والنَّفيُ مطابقًا للإثبات.

دلالةُ التَّعريفِ:

المنافقون أهلُ ألسنةٍ لا قلوبٍ

المؤمنُ هو مَن رضي باللّه ربًّا وبرسوله ﷺ نبيًّا ورسولًا، والملائكة الكرام، والكُتُبِ العظام، واليوم الآخرِ، والقدر خيره وشرِّه، وعُرِّف المؤمنون في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللام العهديَّة، على معنى: ليسوا هؤلاء بالمؤمنين حقيقةً، أي: بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص والثَّبات عليه، ونفيُ الإيمان بهذا المعنى عنهم مقتضٍ لنفيه عن الفريق الذي تولّى وأعرض، على أبلغ وجهٍ وآكده، ولذا اختيرَ كونُ الإشارةِ إليهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطاعة والاتِّباع:

الطّاعةُ أعمُّ وأبلغُ مِن الاتِّباع والانقياد، والاتِّباعُ أبلغُ مِن الانقياد

الطّاعةُ موافقةُ الإرادةِ الحادثة إلى الفعل برغبته، أو رهبته، والطاعةُ تكون من الأدنى للأعلى؛ لأنَّها في موافقة الإرادة، واقعةٌ موقعَ المسألة[2]، والطاعة أبلغُ وأقوى مِن الاتِّباع؛ لأنَّ الاتِّباع تُلوٌّ وقَفْوٌ، والطاعة انقيادٌ كامل، وأهلُ النِّفاق مِن سمتهم المبالغةُ في دعوى الإيمان والاستجابة للّه ورسوله، وعناصرُ الآيةِ تتظاهر على بيان ذلك؛ ألا ترى أنَّهم جمعوا في الذِّكر بين اللّه ورسوله، مع أنَّ الإيمان بأحدهما إيمانٌ بالآخر، ولكنَّهم أرادوا الإبلاغ في إيمانهم، فذكروهما جميعًا، ثم لم يكتفوا بذلك، بل زادوا إبلاغًا آخر، وصورتُه تكرارُ الباء على خلاف الظاهر في قوله: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ مع أنَّه معطوفٌ على اللَّفظ المجرور في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ إبلاغًا في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 195.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 335 - 334.

الاعتداد بنبوَّته ورسالته، وأوامر الله ونواهيه التي جاءت على لسانه، وإبلاغًا في أنَّهم يراقبون لسان حاله، فيقتدون به في كل شيء، ألا ترى أنَّ المناسب لذلك التعبيرُ بالطاعة، لا بالاتِّباع؟ والانقياد مِن معاني الطاعة والاتِّباع، فهو في نفسه أدنى رتبةً منهما.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»